



مظاهر الانعكاس السلبي لقيم الحداثة الغربية على الإنسان المعاصر (الحرية، الفردانية)

*The Negative Impact of Western Modernity's Values on Contemporary Humans:
An Analysis of Freedom and Individualism*

مصطفى وينتن

مخبر الجنوب الجزائري للبحث في التاريخ والحضارة
جامعة غرداية (الجزائر)

ouinten@univ.ghardaia.dz

محمد الأمين بكلي*

مخبر الجنوب الجزائري للبحث في التاريخ والحضارة
جامعة غرداية (الجزائر)

bakelli.mohammedelamine@univ.ghardaia.dz

تاريخ النشر: 2025.07.15

تاريخ القبول: 2025.04.13

تاريخ الاستلام: 2024.10.13

ملخص:

تستعرض هذه الدراسة أهم قيم الحداثة الغربية ومدى انعكاسها على الإنسان المعاصر والمجتمع، وكيف أعادت الحداثة تعريف القضايا الإنسانية والاجتماعية بعدما أبعدت الدين عن مركز الحياة في مغامرة جريئة غير مسبوقة وعدت فيها الإنسان الغربي بالسعادة والخلاص الحقيقي بعيدا عن وعود الدين المؤجلة، وقد بنت الحداثة الغربية فلسفتها على أسس مادية عقلانية ومنفعية متعينة محضة، إلا أنها لم توف بوعدها وفشلت في تحقيق السعادة ولم يستيقظ الغرب إلا على مجتمع مفكك وأفراد معزولين وعلاقات مبتورة ومنظومة رأسمالية استهلاكية تستنزف الفرد وتفرغه من مضمونه الداخلي، والإنسان المعاصر يعيش في عالم خال من القيم تسوده نزوات الأفراد وغرائزهم وتقوده نحو مزيد من التفكيك والتقويض. وجاز لنا القول بأن الغرب لم يثبت أن الإنسان من دون إله هو أقل بؤسا من الإنسان المؤمن بإله، كما جاز لنا القول بأن الإسلام هو أفضل ضمان لحقوق الإنسان.

الكلمات المفتاحية: الحداثة؛ الحرية؛ الفردانية

Abstract:

This study reviews the most important values of Western modernity and the extent of their reflection on contemporary man and society, and how modernity redefined human and social issues after it removed religion from the center of life in a bold and unprecedented adventure in which it promised Western man happiness and true salvation away from the deferred promises of religion. Western modernity built its philosophy on purely material, rational, utilitarian and hedonistic foundations, it did not fulfill its promise and failed to achieve happiness. The West only woke up to a disintegrated society, isolated individuals, broken relationships, and a consumer capitalist system that exhausts the individual and empties him of his inner content. The modern human being lives in a world devoid of values, dominated

* المؤلف المراسل.

by the whims and instincts of individuals. It leads towards further dismantling and undermining. We may say that the West has not proven that a person without God is less miserable than a person who believes in a God, just as we may say that Islam is the best guarantee of human rights.

Keywords: Modernity; Freedom; Individualism

1. مقدمة

تعالّت الأصوات المعادية للدين مع مطلع عصر الأنوار، حيث أطلق الفيلسوف الفرنسي فولتير مقولته الشهيرة: "الدين مصدر كل الشرور"، وفي معترك الحداثة وذروتها نادى الفيلسوف الألماني فويرباخ بأن الدين "اغتراب للخصائص الطبيعية للبشر"، تلاه هولباخ الذي اشتهر بصرخته: "الدين أفيون الشعوب"، تابعه فيها كارل ماركس الذي قلب العالم في عصره ورأى بأن الدين حالة استلاب للشعوب، وفي انتفاخ وغرور أعلن الفيلسوف الألماني نيتشه: "لقد مات الإله"، ليدخل العالم مرحلة جديدة ومعتركا جديدا، معترك ما بعد الحداثة، ويعطي بعدا جديدا للإلحاد، وفي فرنسا يرتفع صوتا جديدا للإلحاد ويعلن سارتر بأن وجود الله يقتل وجود الإنسان وأنه "من الأفضل أن لا يوجد الله حتى أوجد أنا". وغيرها من الصيحات والشطحات والتي اختتمت بالإلحاد الجديد الذي تبنى منظورا آخر غير الدفاع عن قضيته وهو المنظور الهجومي والازدرائي للأديان والمتدينين وترأس هذه الموجة الفرسان الأربعة للإلحاد.

وقد أحسن المؤرخ ديورانت الوصف حين قال: "ما أكثر المرات التي تصور فيها الناس موت الإله والدين في الماضي، ثم بعثا وتجددوا"⁽¹⁾، وهكذا عرف القرن العشرون مخاضات ومدارات فكرية متطرفة غير مسبوقة، لخصها الكاتب الأمريكي جيمس مارتن حين قال بأن القرن العشرين قرن الحدود القصوى. لا تتوقف مسألة الإلحاد على المستوى النظري فحسب، ومن يعتبرها مسألة شخصية تتعلق بحرية الفرد في اعتناق ما يريد فقد أخطأ، إنما الإلحاد هو إنكار منظومة وجودية بأكملها واستبدالها بمنظومة أخرى تتأسس على منظور غير الذي يبنى عليه المنظور الإيماني للحياة، أو ما يسمى بالرؤية الكونية (Worldview). والبون شاسع بين منظور يؤسس مفاهيمه انطلاقا من وجود خالق لهذا الكون ومسبب للوجود وما يتفرع عن ذلك من مسائل أخرى كالغاية والمصير والمعنى من الحياة والنظرة للإنسان، وبين المنظور الذي لا يرى الوجود سوى حلقة ضمن سلسلة تفاعلات طبيعية كبرى حدثت في أزمنة غابرة لا تسير إلى هدف، ولا تنشذ غاية، وكل ما في الأمر أن قصة كل إنسان تنتهي مع آخر نبضة في قلبه.

أسست الحداثة الغربية نظرتها الكونية على أسس مادية عقلانية محضة، وتبنت قيما أخرى غير التي سادت في أوروبا أيام الهيمنة الكنسية، حيث انتقلت بالقيم من المستوى الروحي إلى المستوى المادي، وأنزلت القيم من السماء إلى الأرض، وبهذا تبنت موقفا معاديا للكنيسة وللدين عموما، وأطلقت وعودها بحياة أفضل خارج الدين، وبالخلاص الأرضي الذي حل محل الخلاص الروحي، وأن الدين هو سبب

(1) ديورانت، دروس التاريخ، ص 103.

الشقاء والتردي الذي بلغته أوروبا، وبالتحرر من ربة الكنيسة وقيود الدين ستحقق الحداثة الخلاص الإنساني وتعد الإنسان ببلوغ السعادة التي ينشدها كل مجتمع عبر العصور، "وبدا أن التخلص من الله كفيل بحل مشاكل العالم وهو اعتقاد يبسط الأمور لدرجة مخلة" كما عبرت بذلك أرمسترونج⁽¹⁾.

بهذا العداء للدين والأنظمة التقليدية دشّن الغرب حقبة تاريخية جديدة مثيرة أشبه بمغامرة جريئة قلب فيها الأسس واستبدلها بأسس أخرى. إلا أنه لم يفلح في تحقيق نقلة اجتماعية وإنسانية، بل تردى وانحط بالإنسان والمجتمعات الإنسانية إلى مستويات غير مسبوقة في التاريخ، ولم يعد الإنسان في المنظومة الحداثيّة وما بعد الحداثيّة بأفضل مما كان، بغض النظر عن التقدم التقني والصناعي والعلمي الذي يعتبر طفرة في التاريخ البشري، والذي ساهم كثيرا في تحسين الشروط الخارجية للحياة الإنسانية إلا أنه لم يفلح في تحقيق سعادة الأفراد والمجتمعات، إنما قام بتفكيك المجتمعات والقضاء على القيم الاجتماعية لتحل محلها القيم الفردية المبنية على اللذة والمتعة والاستهلاك، ما أنتج إنسانا كثيبا قلقا يفكر باستمرار في الانتحار ووضع حد لمعاناته الوجودية، فإلى أي مدى يمكننا القول بأن الإنسان الغربي المعاصر حقق ما ينشده خارج دائرة الدين. أما أنه لم يفلح في ذلك، وصار الآن يبحث عن عزاء يسليه ويخفف عنه وطأة الآلام التي يعيشها، يقول فيليب نيمو: "وإذا كان الإلحاد قد مات فما ذلك إلا لأنه لم يثبت أن الإنسان من دون إله هو أقل بؤسا من الإنسان المؤمن بإله"⁽²⁾.

في هذا المقال سنحاول معالجة قيم الحداثة وما بعد الحداثة المتمثلة في الحرية والفردانية وانعكاسها السلبي على الإنسان الغربي والقضايا الإنسانية المعاصرة.

تتناول هذه الورقة إشكالية انعكاس قيم الحداثة الغربية على القيم وعلى الإنسان فردا ومجتمعا، وكيف أن الحداثة الغربية أصبحت واقعا مفروضا على الإنسان ظاهرها تحقيق سعادة الإنسان ورفاهيته، إلا أن واقع الإنسان المعاصر لا يجسد ذلك، ويثبت عكسه من خلال حياته النفسية والاجتماعية والأسرية والسلوكية.

وقد حاولنا في هذه الورقة أن نعالج الموضوع من خلال ضبط مفهوم الحداثة وما بعد الحداثة، ثم بينا في المطلب الثاني كيف انعكست قيم الحداثة على الفرد الغربي من خلال ما سميناه: أزمة تحقيق الذات، وكذا الفلسفة الوجودية، والتمركز حول اللذة، ثم استعراض للثورة الأنثوية التي أفرزت لنا الأنثى الجديدة، وكذا التعرض لمشكلة النكسة الجنسية التي تعتبر من أوضح صور تردّي الإنسان وتسفل الوعي الإنساني الذي سخر العلم ومختبراته لإضفاء الصبغة العلمية على توجهاته الغرائزية الشاذة، وهذه إحدى الأوجه المظلمة للعلم المعاصر. وقد اعتمدنا في هذه الورقة المنهج الوصفي والتاريخي باستقراء الخلفيات التاريخية والأحداث.

(1) أرمسترونج، مسعى البشرية الأزلي، ص 443.

(2) نيمو، الموت الرحيم للإلحاد، ص 08.

2. الحداثة وما بعد الحداثة (مدخل مفاهيمي)

1.2. الحداثة:

الحداثة نسيج فكري وثقافي واجتماعي جديد حلّ بالعالم الغربي مع أقول المنظومة التقليدية الكنسية المتشعبة بالفلسفة المدرسية (السكولائية) التي هيمنت على العقل الغربي وشكلت وعيه، ومع مطلع الأنوار انطلق العقل الغربي في مغامرة فكرية جريئة أعلنت القطيعة مع الماضي بكل ما يحمله، وتجاوزت الفكر الديني إلى العلم الطبيعي الذي ما عاد ينظر للوجود وللإنسان كما كان ينظر إليه. فهي اتجاه فكري أو منظور اجتماعي يتسم برفض الأفكار والمذاهب والقيم التقليدية والابتعاد عنها، وتبني القيم والمعتقدات المعاصرة التي تأسست على العقل والعلم.

والحداثة في السياق الغربي حركة داخل الكنيسة الكاثوليكية استهدفت إعادة تأويل التعاليم الكاثوليكية التراثية التقليدية في ضوء نظريات القرن التاسع عشر الفلسفية والتاريخية والنفسيّة⁽¹⁾ ونادت هذه الحركة بحرية العقل وتخليصه من القبضة الكنسية. وتتميز الحداثة بخاصية تجاوز تفاسير الماضي ومفاهيمه، والسعي الدائم نحو استمرار هذا التجاوز في المستقبل، وقد كافح فلاسفة الحداثة ليثبتوا أن الكتاب اللاهوتيين كانوا محكومين بالأزمنة التي عاشوا فيها، وبهذا فحركة الحداثة جاءت كردة فعل على المركزية الكنسية البابوية (نسبة إلى البابا وهو أعلى درجة في السلم الكهنوتي والمرجعية العليا للكنائس الكاثوليكية).

من هنا يمكننا القول بأن عصر الحداثة العصر الذي اختل فيه التوازن بين الماضي والمستقبل، وهو العصر الذي يحيا بدلالة المستقبل، وينفتح على الآتي، وبالتالي لم يعد يستمدّ قيمته ومعاييره من الماضي، بل يستمدّها من ذاته، وذلك عبر تحقيق قطيعة جذريّة مع التّراث والتّقليد.

تتميّز الحداثة بأنّها تحوّل جذريّ على كافّة المستويات: في المعرفة، وفي فهم الإنسان، في تصوّر الطّبيعة، وفي معنى التّاريخ. إنّها بنية فكرية كلّية، وهذه البنية عندما تلامس بنية اجتماعيّة وثقافيّة تقليديّة فإنّها تصدمها، وتكتسحها بالتّدرّج، ممارسة عليها ضربا من التّفكيك، ورفع القدسيّة، وقد انطلق الفكر الحداثي في سياق غربي محض، وتشكل وتمخض في تلك الظروف التي كان يعيشها المجتمع الغربي مطلع القرن السادس عشر، إلا أنّها اكتسحت المجتمعات شرقا وغربا، ولم تبق فكرة غربية أو تعنى بالمجتمع الغربي، من هنا كانت الحاجة ماسة إلى فهمها وتعمقها.

وقد تبنت الحداثة قيما أساسية شكلت ملامح العصر الحداثي تركزت أساسا على قيم ثلاث وتفرعت عن هذه القيم قيم أخرى كثيرة. ويكاد يتفق المفكرون على القيم الأساسية للحداثة والتي يمكن حصرها في: العقلانية، الفردانية، الحرية.

(1) رباعة، ص 10.

تعززت هذه القيم في الوعي الغربي المعاصر وشكلت ملامح الإنسان الغربي وقيمه ومفاهيمه الرئيسية في الحياة والأخلاق والنظرة الكونية عموماً، مما أدت إلى إحداث ثورة جذرية في المجتمع الإنساني المعاصر تركز في المجتمع الغربي وتمتد انعكاساتها وآثارها إلى مختلف المجتمعات الإنسانية شرقاً وغرباً بتفاوت في نسبة التأثير، بما في ذلك المجتمعات الإسلامية.

2.2. ما بعد الحداثة:

"ما بعد الحداثة" مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية وهي مرحلة الثورات الفكرية ومحاولات تحديث الحداثة أو تجاوز الحداثة بقيمها الصلبة للدخول إلى مرحلة ما بعد الحداثة، والتي شهد العالم فيها سلسلة تحولات وتحديات جديدة لم تكن موجودة في فترة الحداثة، وبالأخص تأثير العولمة والتكنولوجيا على الفرد والمجتمع. وهذه المرحلة يطلق عليها ليبوفتسكي "الحداثة الفائقة"، أو "الحداثة السائلة" وهي الحداثة المتهمة بتغييب الصلابة كما يصفها باومان، حيث تستمد قوتها الدافعة من ذاتها، وتعمل على تمييع مجموعة كبيرة من الكيانات الثابتة المستقرة أو الكيانات التي تستمد بقاءها واستمراريتها من داخلها كالبنى الاجتماعية والروابط الإنسانية والنماذج السلوكية والقيمية... لهذا يمكننا وصف مرحلة ما بعد الحداثة بأنها مرحلة التحديث المتواصل، أو "التحديث الوسواسي القهري الإدماغي الذي يكمن في الإذابة المتواصلة والإحلال السريع للبنى والنماذج الذائبة"⁽¹⁾.

3. انعكاسات الحداثة على الفرد

1.3. أزمة تحقيق الذات (الفردانية المفرطة):

انبثق هذا المصطلح من الفلسفة الوجودية تحديداً، يطلق عليه الفيلسوف الفرنسي المعاصر ليبوفتسكي اسم "الأصالة"، أما المسيري فيسميه بـ "التمركز حول الذات"، وهو من المصطلحات الجوهرية والأساسية في الفكر المعاصر، ويعني أن للإنسان الحق في أن يعيش ويحقق ذاته كما يريد هو، أو أن يكون المرء كما هو، ويمتلك الحق في أن يكون ذاته التي يريد، ويعيش في انسجام مع حقيقته الفردية بعيداً عن كل إملاءات سلطوية متجاوزة، سواء كانت اجتماعية أو سياسية أو دينية⁽²⁾.

وبالطبع أن يعيش الفرد ذاته كما يريد يعني بذلك أنه سيسقط كل القواعد والتوجيهات التي تفرض عليه، ويلجأ إلى خياراته الخاصة والشخصية بغض النظر عن خلفية تشكلها سواء كانت قناعة أم هوى شخصياً أم توجيهاً إلهياً أم أمزجة عابرة، وعموماً فإن الإنسان الغربي حين احتل مكانة الله اعتبر نفسه مقياس كل شيء ومعياره، وتمادى في تقدير ذاته وقدراته حتى أصبح على حد تعبير مراد هوفمان الوثن الجديد لهذا العصر⁽³⁾.

(1) باومان، الحداثة السائلة، ص 21.

(2) ليبوفتسكي، تنويع الأصالة، ص 17.

(3) هوفمان، الإسلام في الألفية الثالثة، ص 22.

كما أن دائرة القرارات لا تنحصر في قرارات بسيطة أو استهلاكية يومية، إنما تعدت ذلك إلى دائرة القرارات الوجودية كالحق في إبداء وجهة النظر الشخصية في مسألة وجود الإله مثلا ولو من دون أدلة أو في قضايا أخلاقية كبرى، أو التدخل في التركيبة الهوياتية الشخصية من دون أن تتحكم في الفرد، فالفيلسوف الوجودي سارتر يرى أن من حق الناس أن يرسموا حياتهم كما يحلو لهم، فالوجود سابق على الماهية، وأن السعادة تكمن في تحقيق الذات، وكل ما على المرء تحقيقه هو السعي في إثبات وجوده والعيش في انسجام مع الميول الشخصية والرغبات الداخلية.

أما الناقد الاجتماعي الأمريكي جون هيبور فيرى أن الفرد في المجتمع الأمريكي يعيش وفقا للفكرة القائلة: إن للفرد الأولوية قبل كل شيء، فالفرد. وفقا لمكانته الأسطورية في التاريخ الأمريكي. أهم من كل شيء؛ منزلته تأتي فوق الحكومة والمجتمع وحتى الإله⁽¹⁾.

لا مجال في الحياة المعاصرة للثبات والأبدية، إنما كل شيء في الحياة قابل للاستبدال حسب ما تقتضيه المصلحة والمنفعة وما يحدده الفرد، إذ لا شيء يحمل الناس على أن يكرسوا حياتهم أو يحبسوا أنفسهم لأي مبدأ أو دين أو مثل أعلى، فلم يعد الواجب في عصرنا إلا خيارا محصورا في دائرة الحرية الفردية، وامتدت حتى الحق في الحرية الفردية إلى الدائرة الأخلاقية، فعصرنا إن جاز التعبير عصر الأنا بامتياز، أو هو كما يصفه ليبوفتسكي عصر السعادة النرجسية، إنه عصر أخلاق دون إلزام ولا عقاب⁽²⁾. وجملة الأمر أن فكرة "تحقيق الذات" نشأت وكبرت في خلفية فكرية تمجد الفرد وتعلي من قيمة الحرية، إنها نتيجة الفلسفة الوجودية القائمة على الحرية وأن الوجود يسبق الماهية، فالإنسان يوجد أولا ثم يحدد ما يريد أن يكونه.

وحين لا يكون الإنسان على دراية بالخلفيات الفكرية ولا بالمنطلقات الفلسفية والنماذج المعرفية فإنه يستنسخ الأفكار بمعزل عن سياقها ويحاول تكلفا البحث عن مكان لها في سياقه الخاص، وقد شهد واقعنا الإسلامي هذا بكل أسف، فكثيرا ما تتردد على مسامعنا كلمات رنانة تدغدغ عواطف الشباب عموما من أمثال: "تحقيق الذات" ثم يحاول هؤلاء تأصيلها ببعض الأحاديث أو الآثار، وهذا جزء من أزمنا الفكرية.

2.3. التمرکز حول اللذة:

"السعادة في اللذة" هذه المقولة تختصر لنا قصة الأخلاق ومآلها في عصر الحداثة وما بعد الحداثة، فمنذ أن زحج الإنسان الغربي الإله عن المركز وسؤال الأخلاق يفرض نفسه بقوة، ماذا عن الأخلاق في عالم يخلو من إله؟ إذا رفضنا الدين وفكرة الإله من الحياة فما هي الأسس التي تتأسس عليها الأخلاق؟ ما

(1) هيبور، الفردوس الأمريكي، ص 238.

(2) ليبوفتسكي، أقول الواجب، ص 65.

هو المعيار الذي من خلاله يمكننا الحكم على الأفعال البشرية؟ وما الذي يجعل بعض الأمور خاطئة أو صحيحة؟ إذا كان الله غير موجود فما هي الأسس المتبقية للأخلاق الموضوعية؟ ما هي الأسس الأخلاقية لعالم يرى أن البشر ليسوا سوى أعراضاً لمنتجات ثانوية في الطبيعة؟ وهل ثمة مبرر لقيام التزامات أخلاقية؟

لم تفلح الحداثة إلى يومنا هذا في صياغة نظام أخلاقي معقول ومبرر، فمن المنفعة العامة إلى المنفعة الخاصة إلى اللذة إلى أخلاق السادة وأخلاق العبيد، إلى الممارسات الروحية والرياضات الشرقية، لا يزال الفرد الغربي تائهاً يبحث عن السعادة وينشدها، ويبحث عن قيم ثابتة في عالم لا يعرف الثبات ويرفضه، ويخضع كل شيء لقاعدة التغير والتحول والضرورة.

يؤكد الكثير من فلاسفة الحداثة أن المتعة هي معيار الأخلاق المعاصرة، وتم إعلاء المتعة لتصبح القيمة العليا والهدف الوحيد للحياة في المنظومة المادية، ولا عجب فالحياة تبدأ من لحظة الولادة وتنتهي بآخر نبضة في القلب، فما الذي يحمل على الاقتصاد في المتعة والتقليل منها، خصوصاً والحداثة قد رفضت فكرة اللذة أو المتعة الآجلة التي تعتبر فكرة أساسية في الأديان عموماً، إنما تبنت الحداثة شعار "الآن وهنا" (Now and Here)، فالحياة قصيرة ولن يعيش المرء سوى حياة واحدة، فالخير هو اللذة والشر هو الألم والمعاناة، والسعادة تكمن في تحقيق أكبر قدر من المتعة والتخلص من الآلام والمعاناة، وبهذا يرى ليبوفتسكي أن دائرة طلب المتعة اتسعت، وانتشرت الإغراءات في كل مكان ولا تكاد تغيب الإغراءات عن مواقع التعارف ولم يتمتع الرجال والنساء قط في ممارسة علاقاتهم الجنسية بمثل هذه الحرية من قبل، فنحن إزاء صعود أخلاق بلا التزام ولا عقاب، ومن دون توضيح كبرى، ودون قطع لأواصل الذات، إنها أخلاق تميل إلى فقدان قوتها الإلزامية ونفوذها الفعلي وسلطتها الفائقة، إنه عصر الفردانية المفرطة يؤدي إلى تفويض سلطة الواجب انتصاراً للحقوق الشخصية⁽¹⁾.

ولعل من أسوأ آثار المتعية الفردية الانحراف بالعلاقات بين الرجال والنساء من الوظيفة الربانية التي إلى وظيفة متعية محضة، وتولدت عن ذلك منظومة اقتصادية رأسمالية كبيرة جداً أسست لهذا التوجه وكرّست له قوانين للحماية الصحية تضمن متعة من دون ألم أو معاناة أو تبعية ومسؤولية (لذة بلا مسؤولية)، وقد تأثرت بذلك منظومة الأسرة والمجتمع الغربي بأكمله، حيث تحول الاهتمام من الواجب إلى المتعة، ومن الحب إلى الجنس، وصار لذة من دون مسؤولية اجتماعية. يحدثنا عالم النفس

(1) ليبوفتسكي، تنويع الأصالة، ص 11.

بول فيتز عن عالم النفس الأمريكي "جون موني" الذي قدم نظريته التي سماها "الجنس الترفيهي"، وهي على عكس "الجنس الإنجابي" والذي لم يعد ينظر إليه على أن وظيفته محصورة في الإنجاب⁽¹⁾.

3.3. انحراف دور الأنثى:

على الصعيد الأنثوي لم تكن أزمة المرأة في المجتمع الغربي سوى أزمة تحقيق الذات، إذ تصور الحركات النسوية أن المرأة لن تحقق ذاتها سوى بالتحرر الكامل من أي التزامات اجتماعية أو أسرية تكبلها وتقيد حريتها، وفي هذا تشير الكاتبة إيفا هيرمان إلى أن رائدات الحركة النسوية يردن من النساء أن يتغلبن على الارتباط بالرجل والطفل في طريقهن لتحقيق ذواتهن⁽²⁾.

إن تمجيد الحرية وتعزيز قيم الأنانية والفردانية انعكس سلبا على المجتمع الغربي، حيث صار الفرد يمتلك الحق في تجسيد الصورة التي يراها مناسبة لنفسه انطلاقا من تفكيره الحر، والمرأة من أكبر ضحايا هذه المفاهيم، حيث فرض عليها اقتحام السوق المفتوحة ومنافسة الرجال في الظفر والحصول على مكان فيه، وفي هذا إجحاف وظلم لطبيعة المرأة وفطرتها التي فطرها الله عليها، حيث المؤهلات الجسمية والعقلية والاستعدادات النفسية تختلف تماما بين الذكر والأنثى.

ومع ذلك لم تجد المرأة الغربية بدا من مجابهة الرجال ومنافستهم لتحقيق ذاتها وإثبات حقها في الحياة بحرية بعيدا عن القيود الأخلاقية والمسؤوليات الاجتماعية والالتزامات الأسرية. لقد دفعها الرغبة في تعديل أدوار الجنسين باسم أنماط الحياة الحديثة، وأثرت الدخول في معركة مفتوحة ضد التقسيم الفطري (الإلهي) لأدوار الحياة والذي تعتبره النسويات تقسيما تقليديا يدعم الهيمنة الذكورية على المرأة، وصارت تنظر إلى الفروقات الطبيعية على أنها عقد تكبلها بدل أن تنظر إليها على أنها حقيقة طبيعية.

بهذا أصيبت المرأة في الغرب بحساسية كونها أنثى الأمر الذي يفسر سعيها المحموم في إثبات قوتها ووجودها ومجازاة الرجال في مختلف مجالات الحياة العملية والعامة. تقول إيفا هيرمان في سياق شجبتها للمفرزات الاجتماعية للحركة النسوية: "ما كانت تنادي به الحركة النسائية من حرية المرأة وحقها في حياة كاملة تقودها بنفسها لم يتحقق. والأسوأ من ذلك، أننا اليوم كثيرا ما نقف أمام حطام كينونتنا، على المستوى الشخصي والاجتماعي والمالي، فالزواج والأسرة مهددان، ويزداد الشعور بعدم الراحة والخوف"⁽³⁾.

تحطمت الأنوثة الغربية على صخرة المساواة والحرية والفردانية، وامتد ذلك إلى مؤسسة الأسرة وفشلت كل وعود الحداثة بمجتمع أفضل وأسرة أفضل، ولم يعد المجتمع سوى مجموعة أفراد منفصلين مستهلكين، فبسقوط المرأة. الزوجة تسقط الأسرة ويتراجع الجوهر الإنساني، أو يصبح كل البشر أفرادا

(1) فيتز، علم النفس دينا، ص 67.

(2) هيرمان، المرأة الجديدة، ص 22.

(3) هيرمان، مرجع سابق، ص 19.

طبيعيين لكل واحد مصطلحه الخاصة، يجابهون الحياة ومصاعبها بمفردهم، يعيشون في دوائر مغلقة أو قطاعات مغلقة: قطاع الإنتاج، قطاع الاستهلاك، قطاع اللذة، وتبسيط أشد تدور حياة الفرد المعاصر في الغرب في المصنع أو المؤسسة المستخدمة، السوق، الملهي الليلية.

4.3. تآكل الروابط الأسرية:

مع تقدم المجتمع الغربي في تبني قيم الحداثة وتجسيدها بشكل صارم في شتى مجالات الحياة نلفت النظر إلى مشكلة "إعادة تشكيل أدوار الأمومة"، أو "تآكل أدوار الأمومة التقليدية"، والتي تعكس تحولاً عميقاً في القيم الاجتماعية والأسرية في الإنسان المعاصر. ففي العديد من المجتمعات الغربية تراجعت أدوار الأمومة والأسرة التقليدية بسبب التغيرات الاقتصادية والاجتماعية مثل زيادة مشاركة المرأة في سوق العمل، والانخفاض في معدلات الزواج والإنجاب، وكذا انتشار القيم الفردية التي تشجع على تحقيق الذات والاستقلالية الشخصية للمرأة.

إن ترسخ قيم الحرية والفردانية في المرأة الغربية بدا واضحاً، إذ لم تعد المرأة ترغب في أن تكون أما؛ ذلك لأن المرأة صارت تنظر إلى الإنجاب ورعاية الأطفال على أنهما عائقان أمام تحقيق الطموحات الشخصية والمهنية. فالنساء في يبحثن عن الإنجاز في السوق وليس في المنزل، حسب ما تنقله بعض التقارير الأسرية في موقع منظمة (Real Women of Canada) وهي منظمة غير ربحية تدعم الأسرة التقليدية وتدعو لعودتها واستقرارها، في تقرير بعنوان: (What Happened to Traditional Marriage) فإن النساء يجدن إنجازاتهن في حياتهن المهنية ولا يرغبن في تقليصها بالزواج والإنجاب، فالمرأة المعاصرة أضاعت الأسرة حين وضعتها في نفس الدرجة من الخيار، وبالفعل ستختار المرأة التحرر وعدم تقييد نفسها ما دامت قيم النجاح والإنجاز ففرضت عليها من طرف السوق:

"Some women do find genuine fulfillment in their careers and do not wish to curtail their achievements by marrying and having children. If so, they should be free to do so"⁽¹⁾.

ومن الملفت للنظر أنه في أوروبا ما قبل الحداثة كانت أصابع الاتهام تشير إلى المرأة حين تتجراً على التخلي عن مهامها المنزلية، تقول الناشطة النسوية جيزيل حليمي: "أن تكون المرأة ربة بيت يبقى اختياراً، وهو محترم، ولكنه اختيار لا يتماشى مع مسيرة تحرير النساء"⁽²⁾.

تريد الحكومات في الدول الغربية من المرأة أن تكون عاملة أكثر منها أما، وذلك لدفع عجلة الاقتصاد، كما أن المرأة تم إدخالها ضمن القوى العاملة مدفوعة الأجر، بعد أن كانت تعتبر من القوى السالبة وتعتبر ديبوفوار "عمل لا ينتج شيئاً"، فالحكومات الغربية. وفي كندا مثلاً. تعتبر عمل المرأة مصدراً

(1) What Happened to Traditional Marriage, see: Real Women of Canada, July 05 2021.

(2) البشير، جنابة النسوية، ص253.

للإيرادات الضريبية يزيد من الناتج القومي الإجمالي، ومحركا أساسيا للنمو الاقتصادي، وفي نظام لا يعترف بهدف آخر غير تحقيق أقصى قدر من الإنتاجية ما المكانة التي يمكن أن تحتلها التربية الأسرية؟⁽¹⁾. ويذكر تقرير آخر بعنوان: (Government Wants Women in the Workplace, Not the Home) في ذات الموقع⁽²⁾ أن المرأة في كندا تعاني من التمييز القائم على الأمومة أثناء الحمل والولادة، وتعيش حالة من التمزق بين وظيفتها المهنية والأسرية، مما جعل الكثير منهن يرغبن في الحصول على الاعتراف الرسمي بأهمية دورهن كأمهات. فالمشكلة في المنظومة الاقتصادية المعاصرة وكذا في الفكر النسوي أن الأطفال والأسرة لا يحتلون مكانا ذا أهمية في سلم قضاياهم، كما تشير إلى ذلك "لين ستالسبيرج" في كتابها "هل أنا حرة"⁽³⁾، ويعتبر عالم الاجتماع كريستوفر لاش الصورة التبسيطية والاختزالية للمرأة التي تبقى في البيت مع الأطفال من إنتاج ثورة العمل المأجور.

هذا التحول والتغير في أدوار المرأة أدى إلى ضعف الروابط الأسرية والتقليل من أهمية الأمومة باعتبارها ركيزة أساسية لمنظومة الأسرة، ومع ظهور البدائل الأخرى خارج الأسرة كمؤسسات تربية الأطفال، وبرامج الرعاية الاجتماعية التي تنفق عليها الدول الغربية ميزانية ضخمة جدا، والتي تهدف إلى توفير الدعم في إجازات الأمومة المدفوعة، وكذا الرعاية النهارية للأطفال والتخفيف من أعباء الأمهات اللاتي جمعن بين العمل والأسرة. وهكذا أضى الاعتماد على الرعاية المؤسسية بديلا لدور المرأة في الكثير من الحالات، مما يسمح للمرأة بالعودة إلى العمل بشكل أسرع بعد الولادة وبهذا تفقد الروابط والعلاقات العميقة بين الأم وأطفالها.

يمكننا القول بأن العالم الغربي اتسم بالتأرجح مثل البندول بين نهيتين متطرفتين، فبتطرف الغرب في إقصاء المرأة وتخفيض مكانتها بوصفها شريكة للشيطان في إغواء آدم، وكذا بإقصائها من ممارسة الحياة، نجده اليوم يتطرف مرة أخرى بتصاعد موجة احتجاجات النسوية المطالبة بحقوقها، ثم بمساواتها بالرجل، ثم باكتفائها بذاتها وانفصالها عن الرجل والتمركز حول نفسها، في حالة من العداء والصراع، من تهميش النساء، إلى الحركة النسوية، ثم إلى النزعة النسوية المتطرفة، لتنتقل في الغرب نزعة جديدة تطالب بحقوق الرجال، وهكذا.

يقول بيجوفيتش: "إذا طالبنا باحترام الأم، فلنطالب الأم باحترام نفسها أولا. أليست المرأة التي أنجبت وربت طفلين أو ثلاثة أو أكثر، قد ترى أحيانا أن ما قامت به أقل قيمة من عمل مهندسة أو طبيبة

(1) البشير، مرجع سابق، ص 254.

(2) . Real Women of Canada, (Government Wants Women in the Workplace, Not the Home), 2021.

(3) ستالسبيرج، هل أنا حرة، ص 13.

أو موظفة بدالة الهاتف. إنّ نظرة المجتمع بهذه المقاييس تجعل المرأة تعتقد ذلك. أليس من حقّ كلّ أمّ أن تفخر بكونها امرأة" (1).

5.3. معضلة التحول الجنسي:

أسلفنا الذكر عن الحرية باعتبارها قيمة مركزية في المجتمع الغربي، ومنها انبثقت الكثير من التوجهات التي تعزز وتؤكد هذه القيمة، ما جعل المجتمع الغربي يسايرها رغما عنه كونه مجتمعا ليبراليا. وقد امتد الانشغال المفرط في الحرية (Libertarianism) وتجسيد معاني الفلسفة الوجودية بعمق إلى حد التجاهل أو التقليل من أهمية القيود الأخلاقية والاجتماعية، ورفع شعار "حق الفرد في خلق الوجود كما يريده" ليشمل الفئات التي تعاني من الهشاشة أو اضطرابات نفسية. ولأن المجتمع الغربي أخذ على عاتقه الدفاع عن الأقليات والفئات الشاذة، فقد جرى العلم هذا التوجه ليتم تصنيف بعض الاضطرابات على أنها حالة طبيعية، فما كان ينظر إليه المجتمع الغربي على أنه شذوذ أو حالة غير طبيعية أو اضطراب في الهوية الجندرية (GD)، صار مشكلة بسيطة تدعى بالرغبة في "تأكيد الجنس".

في المجتمع الغربي المعاصر يقصد باضطراب الهوية الجنسية (GD) الشعور بعدم تطابق الهوية العاطفية والنفسية مع الهوية البيولوجية التي ولد بها المرء، وقد وجدت الأبحاث الطبية مخارج علمية تمكّن الإنسان من "الخروج من أطره البيولوجيا وتغيير جنسه الذي ولد به، ليتحول إلى ما يرغب فيه" هو "بعيدا عن إملاءات القدر عليه"، فالعبرة ليست بـ "النوع المحدد عند الولادة"، إنما صارت المحتكم لـ "الشعور الداخلي للنوع" (Internal sense of gender)، وأصبحت عبارة "النوع المحدد عند الولادة" صار عبارة شهيرة في ملء البيانات الأساسية لأي طفل؛ والذي يقتضي أن الطفل لم يحدد بعد جنسه بطريقة نهائية، وهذا مصدر الاعتقاد أن الأطفال يمكن أن يولدوا في الجسم الخطأ، كما أشار إلى ذلك "جاي ريتشارد" في مقال له بعنوان: ماهي الأيديولوجية الجندرية؟ (2).

"تأكيد الجنس" يعني أنه ليس مفروضا على الإنسان أن يستجيب لنوع الجنس الذي تم تحديده منذ الولادة. من هنا ظهر "التحول الجنسي" (Transgender) كمصطلح له مكانته المفروضة على المجتمع الغربي بما في ذلك الكنيسة ومختلف التوجهات الدينية، وهو ما يدعى في الجراحة المعاصرة بجراحة "تثبيت الجندر" (Gender Confirmation Surgery)، أو ما يصطلح عليه بالاختصار العلمي (GCS)، كما يريد البعض أن يطلق عليه: "العبور الجندري"، ويعني ذلك أن الهوية الجنسية غير الجنس البيولوجي.

(1) بيجوفيتش، عوائق النهضة الإسلامية، ص39.

(2) Richard, D. J, What Is Gender Ideology? July07, 2023. www.heritage.org.

وقد أصدرت الولايات المتحدة الأمريكية قانوناً لحماية هذه الفئات ومكافحة كراهيتهم، وعملت على إدماجهم باستحداث تغييرات جذرية في المنظومة القانونية والحقوق الاجتماعية والتربوية لهذه الفئة، ووصمت كل من يعادي الفكرة أو يقف ضدها بالمصاب برهاب التحول الجنسي (Transphobia)، وقد تم قامت المحكمة العليا بإعادة تعريف الزواج بطريقة رسمية وقانونية، وببساطة الترنسجندر كان فكرة ثم تحول إلى أيديولوجية، أي من مصطلح (Transgender) إلى أيديولوجية (Transgenderism).

ففي ولاية "سان فرانسيسكو" الأمريكية على سبيل المثال تم تأسيس مركز (GCC) وهو مركز متخصص في "تأكيد النوع الاجتماعي" (Gender Confirmation Center) والذي يرأسه الدكتور "سكوت موسر" الذي حصل على ختم الجراح الرئيسي، ويسعى المركز في تقديم خدمات صحية عالية الجودة لفائدة المتحولين تشمل أيضاً ذوي الدخل المنخفض من خلال الأعمال الخيرية وخدمات التأمين المجانية، لدعم هذا التوجه والعمل على تطبيع⁽¹⁾.

وحسب الكاتبة جلين ستانتون فالأطفال يخرجون صباحاً إلى المدرسة ثم يعودون وقد راودتهم الشكوك حول هويتهم، إذ إن صديقه الذي يدرس معه في نفس الفصل لم يعد صديقه بعد الآن، إنما صار صديقته، فقد قام بتغيير هويته الجنسية. ويشير جلين إلى أن ثمة قوة ثقافية أشبه بتسونامي تعتبر الذين لا يقبلون بفكرة التحول متعصبين.

"Your child comes home from school one day, and you ask how the day went. However, you weren't expecting a discussion about gender myths. You learn that one of her classmates is not Andy anymore but, instead, wants to be called Andrea. He is now a "she." At least, that's what your child says. Now everyone at school is required to play along. Andy has become gender dysphoric and has switched his gender identity"⁽²⁾.

إن كذبة "تحقيق الذات" عن طريق اختيار الهوية الحقيقية أو ما يدعى بـ: "تأكيد الهوية الجندرية" تعتبر اعتداء على الهوية الإنسانية والذات الإنسانية، وقد ساهمت في ارتفاع معدلات الانتحار في أوساط الشباب أو المتحولين عموماً مقارنة بغيرهم من الشباب العاديين. وتظهر دراسات حديثة ذلك مما يبعث على الشكوك تجاه الأطروحة القائلة بأن منع الأطفال من تأكيد هويتهم قد يساهم في ارتفاع نسبة الانتحار أو التفكير فيه، ويستدعي الأمر تفنيدها.

(1) See: Gender Confirmation Center, 2023.

(2) Glenn T. Stanton, Understanding the Myths of Gender Identity and Transgenderism, May01, 2024.

4. خاتمة

لم يفلح مشروع الحداثة في تحقيق الرفاهية للبشر، ولم يثبت بأن الإنسان خارج دائرة الإله أفضل منه داخل دائرة الدين، والعكس من ذلك فقد تردت البشرية في مزالق حضارية واجتماعية وإنسانية لم يشهد التاريخ مثلها، رغم ما حققته من قفزة فلكية في مجال العلوم والتقنية، إلا أن الإخفاق الاجتماعي والإنساني لا يمكن اعتباره أمراً ثانوياً، والعلم المفارق للقيمة سيكون وبالا على الإنسانية ووسيلة لإفساد الكون وتدميره.

يقول المفكر هوفمان: "أولم يتضح بالدليل القاطع والبرهان البين أن القرن العشرين المنصرم كان أكثر القرون دموية في تاريخ البشرية، بكل ما شهدته من حروب عالمية مدمرة وانتشار الأسلحة القادرة على إبادة الملايين من البشر ومعسكرات الإبادة وعمليات التطهير العرقي وغيرها من مآسي البشرية؟ وكل هذا يشهده العالم بعد مرور 250 عاماً على بداية عصر التنوير ومشروع الحداثة. وتتركز هذه الأعمال الوحشية في أوروبا المتحضرة الشديدة الزهو والفخر بعقلانياتها وإنسانياتها"⁽¹⁾.

رغم النتائج التقنية والتقدم التكنولوجي والعلمي الباهر الذي أفرزته المنظومة العقلانية الحداثية، إلا أنها بعدما أقصت الدين عن مركز الحياة اضطرت إلى إعادة تعريف القيم والإنسان، وأسست لرؤية مادية عقلانية قاصرة قامت على تضخيم مكانة الفرد وإعلاء قيم المنفعة والحرية المطلقة. وقد انعكست هذه القيم على الإنسان والمجتمع المعاصر فأنتجت مجتمعات مفككة وأفراداً معزولون يعانون من اغتراب وتفكك نفسي وقيمي، في عالم خال من المعنى والغرض. كما أن المجتمعات الغربية أثبتت فشلها في تحقيق السعادة الموعودة، مما يدفع إلى التساؤل حول مقدرتها على ضمان كرامة الإنسان وحقوقه مقارنة بالوعود الدينية.

وعليه يمكننا إجمال القول بأن النتائج التي توصلنا إليها:

- كشفت الحداثة الغربية عن محدودية المنظومة المادية في تحقيق السعادة الفردية والاجتماعية.
- أدى تغييب الدين إلى أزمة المعنى وغياب مرجعية عليا توطر السلوك الإنساني وتوجهه.
- انعكست القيم الفردانية والنفعية على المجتمع الغربي بتفك الأسرة وتآكل الروابط الاجتماعية وازدياد العزلة النفسية.
- فشلت الوعود الحداثية في بناء الإنسان السوي، وكشفت عن عجزها في توفير إجابة حقيقية لسؤال الذات، حيث استبدلت إرادة المعنى بالتمركز حول الذات والملذات.

(1) هوفمان، الإسلام في الألفية الثالثة، ص 11.

- هيمنة قيم المتعة والفردانية على تصور الإنسان لذاته، مما أدى إلى انحدار أخلاقي وتحلل في المعايير القيمية المشتركة.
- أدى تفكيك المرجعيات وتضخيم الذات إلى اختلال دور المرأة، حيث لم يعد ينظر إليها على أنها عماد الأسرة ومصدر استقرار المجتمعات، بل كذات متحررة من أي التزام قيمي أو أسري.
- تراجعت مؤسسة الأسرة أمام التصورات الحداثية المشوهة للعلاقات، مما زاد في نسب التفكك وغياب الاستقرار العاطفي والنفسي لدى الأفراد.
- ساهمت فلسفات ما بعد الحداثة وتغلغل قيمة الحرية في الذات الغربية وما أفرزته من هوس تحقيق الذات في خلق تصورات عبثية حول الهوية الجندرية، وهوس جديد حول إعادة تعريف الإنسان لنفسه انطلاقاً من رغباته وميولاته بدلاً من معيار "ما ينبغي أن يكون عليه".
- وجملة الأمر يمكننا القول بأن الغرب قضى على القيم الإنسانية والاجتماعية، وعمل على تفكيك الروابط الاجتماعية بدءاً من نواتها المركزية وهي منظومة الأسرة، ولم يستفك هذا الجيل إلا على محاضن معزولة ومفرغة من مضمونها الوجداني والروحي، فالمرأة في الغرب تحمل من رجل وقد تستودع حملها امرأة أخرى، ثم تنجب فتودعه محاضن الدولة ليتم تسليمها إلى أسرة أخرى، وقد تكون أسرة تقليدية وقد تكون أسرة معاصرة متكونة من شريكين مثليين، أو من رجل لوحده، أو امرأة وحدها، أو من ثلاثة شركاء، وما إلى ذلك من المساوئ الاجتماعية التي آلت إليها الحضارة الغربية العقلانية.

5. قائمة المراجع

- أرمسترونج، ك. (2010). مسعى البشرية الأزلّي الله لماذا؟ بغداد: إصدارات سطور.
- باومان، ز. (2017). الحداثة السائلة. بيروت: الشبكة العربية للأبحاث.
- البشير عصام، أ. (2020). جناية النسوية على المرأة والمجتمع. الرياض: مركز دلائل.
- بيجوفيتش، ع. (1996). عوائق النهضة الإسلامية. قطر: جمعية قطر الخيرية.
- ديورانت، و. (1993). دروس التاريخ. الكويت: دار سعاد الصباح.
- رباعة، م. (2020). مأزق الحداثة وما بعد الحداثة وموقف الإسلام منهما. بومرداس: القبس.
- ستالسيرج، ل. (2017). هل أنا حرة. مصر: دار صفصافة.
- فيتز، ب. (2022). علم النفس ديناً. الرياض: دار أدب.
- ليبوفتسكي، ج. (2018). أقول الواجب. بيروت: مركز نماء للبحوث والدراسات.
- ليبوفتسكي، ج. (2022). تنويع الأصالة. الرياض: دار أدب.

- مارتن، ج. (2011). معنى القرن الحادي والعشرين. دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب.
- نيمو، ف. (2018). الموت الرحيم للإلحاد. بيروت: جسور للترجمة.
- هوفمان، م. (2000). الإسلام في الألفية الثالثة. مصر: الشروق.
- هيرمان، إ. (2021). المرأة الجديدة. الرياض: مركز دلائل.
- هيور، ج. (2019). الفردوس الأمريكي. الرياض: مركز الفكر الغربي.

7. Bibliography List

- Al-Bashir Issam, A. (2020). The feminist crime against women and society. Dalail Center.
- Armstrong, K. (2010). The eternal quest of humanity: God, why? Sutoor Publications.
- Bauman, Z. (2017). Liquid modernity. The Arab Network for Research and Publishing.
- Betz, P. (2022). Psychology as religion. Adab Publishing.
- Bijović, A. (1996). Obstacles to the Islamic renaissance. Qatar Charity.
- Durant, W. (1993). The lessons of history. Suad Al-Sabah Publishing.
- Hermann, I. (2021). The new woman. Dalail Center.
- Hewer, J. (2019). The American paradise. Western Thought Center.
- Hofmann, M. (2000). Islam in the third millennium. Al-Shorouk.
- Lipovetsky, G. (2018). The eclipse of duty. Nama Center for Research and Studies.
- Lipovetsky, G. (2022). The crowning of authenticity. Adab Publishing.
- Martin, J. (2011). The meaning of the 21st century. The Syrian General Book Organization.
- Nemo, F. (2018). The euthanasia of atheism. Jusoor for Translation.

- Raba'a, M. (2020). The predicament of modernity and postmodernity and Islam's stance toward them. Al-Qabas.
- Stalsberg, L. (2017). Am I free? Safsafa Publishing.